الفصل الرابع

الكيانُ الاجتماعيُّ المعاصر

لعلّنا إذا جعلنا دراستنا تتوجّه مبدئياً إلى عمليّة تكوُّن الأُسرة ، والتى تشكّل فيها (المرأة) المحْور الأساسى ، نستطيعُ أنْ نحدِّد بعدئذ الصورة العامة للكيان الاجتماعى المعاصر فى أُمتنا الإسلامية ، فى شتى ديارها ، ودُولها ، ذلك أن الأُسْرة هى مجتمعنا الصغير بُكلّ ملامحه وعلاقاته .

وتكوُّن الأسرة ينطلق من مبدأ اختيار كل طَرَفٍ من الزوْجيْن لشريك حياته ؛ فكيْف يتمُّ ذلك ؟.

قد يرى بعض الناس أنَّ الاختيار مقصُورٌ على الزوْج عُرْفاً وعادةً ـ وهو الظاهر ـ ، إلا أنّه عند التحقيق يظهر بُطلان تلك النظرة السطحيّة ، وهذه النظرة تدعو أصحابها والقائلين بها إلى تحميل إرادة الزوْج فى الاختيار سُوء العاقبة والمنقلب ، ومن ثَمّ تردّيه فى البُعد عن جادَّة الصراط ، وارتياد الصّعْب من السُّبل ، والضرْب بالوصايا ، بل بالقواعد الدينية الأساسيّة فى الاختيار ، عَرْض الحائط .

فالرجل حين يريد آختيار الزوجة (الصالحة) ...، لا يلتفتُ مُطْلقاً إلى وصيّة الرسول ﷺ فى حديثه الشريف : « **لا تَزَوَّجوا النّساء لِحُسنِهِنّ فعسى حُسنُهنّ أنْ يُرْدِيَهُنّ ، ولا تَزَوّجُوهُنّ لِأموالِهِنّ فعسى أموالُهنّ أن تُطْغِيَهُنّ ، ولكن تَزوّجوهُنّ على الدّين ، ولَأمَةٌ خَرْماء[1] سَوْداء ذات دينٍ أفْضَل** » ...

وكذا المرأة فى الواقع لا تهتمّ بخُلُق الزوْج الذى يعرض نفسه عليْها ، ولا تعتبر فضائله قدْر اهتمامها بوسامتِهِ واعتبارها لمالِهِ ، فمسئوليتها فى الاختيار (المنحرف) الذى يجعل المَال والجمال أساساً ، وما عداهما عبثاً ، قدْر مسئولية الرجل .

وأما قول الرسول ﷺ عن الأَمة السوْداء الخرماء ، ذات الدّين ، بأنّها

---

(١) الخرماء : مثقوبة الأذن .

obeikandl.com

أفضل ، فهو ضَرْبٌ من الدِّقّة والتحرى فى الاختيار ، لا بأس مطلقاً ، ولا حَرَج أبداً ، فى اجتماع المال أو الجمال مع الدِّين ...، ولقد رُوى عنه ﷺ قوله فى المرأة الصالحة : « **هى التى إن نَظَر إليها سَرَّتْهُ ، وإذا غاب عنها حفظتْه فى مالِهِ وعِرْضه** » .

أما أن يكون المالُ ، أو الجمالُ هو الأساس والقاعدة ، ويكونُ الخُلُق والدين شيئاً ثانويّاً عرضيّاً لا قيمة له ، فهذا هو التجنّى والافتئات الاجتماعىّ ، ومن ثَمَّ التردّى .

والبستان الغنىُّ بالفاكهة الناضجة ، والثمار اليانعة ، والأزاهير والورود إن لم يجعل صاحبه حوله سياجاً يحميه ويحرسه يكون عُرْضةً للسرقة من قِبَل اللصوص ، وحتى من الذين لم يعرفوا السّرقة والاختلاس مرةً فى حياتهم ...

فالنظرة إلى ذلك (الجمال) تبعث على الشهوة ، الشهوة تحرِّك الشّر وتنفث السُّم ، فيندفع الإنسان بلا وعْى إلى ارتكاب المحرَّم ، وليس صاحب البستان بعد هذا حُجّة ...، وقد لا يحتَجّ !!؟.

إذاً ...، فإن الأسس التى يقوم عليها الاختيار ـ اليوم ـ أسس واهية ، ومن العبث أن نقول إن الزوجيّة والأسرة فى ترابُطها وبلوغها مراميها لا تسير من سيىءٍ إلى أسْوأ ، ومن الغباء أن نُغمض العينيْن ثم نقول : أيْن الفساد !!؟ وهو يطبّق دنيانا ويملأ مجتمعنا .

ولْنَسْأل أنفسنا : ما الذى يمنعنا من اختيار ذات الدين ؟ .

والجواب : أن التباين فى الاختيار ، نتيجة التباين فى الحاجة والدافع .

فمن الناس من يجعل الزواج وسيلةً للشهوة ، وقضاء الوطر ، ويُصِرُّ أن يكون الجمال شرطاً فيمن يقبلها زوجةً له .

ومنهم من يظن الحياة مالاً وغنى ، وثراءً واسعاً ، وسيارات فارهةً ، وقصوراً عامرة ، ليملأ بها أغْوار نفسه ، الخاوية الذليلة .

وعلى العموم ، فإن تلك مآرب دخيلة خسيسة ، لا يجوز منطقيّاً ولا عقلانيّاً أن تكون دافعاً للزواج ، أو أن تدخُل فى النيّة .

obeikandl.com

والإسلام ـ دين الخُلُق ـ يوجبُ أن يكون الزواج مؤسساً على تطلُّب الصفات الكريمة ، والمعانى الجميلة السامية ، والخُلق الطيب ، لأن المرأة (إنسان) ؛ وأجمل ما فى الإنسان إنسانيتُه ، وحقيقته المشرقة ، وصفاته المحبَّبة ، فإذا ما أُوتيت المرأة حظّها من (الجمال الحق) ، وراح الرجل يَنْشُد الجمال الظاهرى ، أو المال ، أو نحوه ...، كان ذلك سقوطاً فى الهمّة ، وفساداً فى النظر إلى حقائق الحياة ، وإنما تستقيم لنا الحياة وتسعد إذا نحن أجريْناها على حقائقها السليمة ، ولم نحملها على غير ما سنّ الله ورسوله لنا .

ولقد كان لنا فى رسول الله ﷺ ـ ولا يزال ـ أسوةٌ حسنة ، فقد تزوَّج ﷺ من « خديجة بنت خُوَيْلد » ـ رضى الله عنها ـ وهى فى سنٍ متقدّمة على سِنّه ، لكنه كان زواجاً موفّقاً ، سعيداً ؛ لأنه كان زواج عقْلٍ راجح إلى عقل راجح ، وخُلُق كريم إلى خُلُق كريم ، كان كل من الزوجيْن يعيش فى حقيقة نفسه ونور فطرته ، فأحبّ فى الآخر رجاحَة العقل وسُمُوَّ الخُلُق ، ولم يكُن لشباب البدن وجمال الصورة أى تقدير ، ولذا عاش رسول الله ﷺ يهشّ لذكراها ويحنّ لعهدها ، ويكرم كُلّ من كان يعرف من أترابها .

إذاً ...، ما الذى يمْنَعُنا ـ اليوْم ـ، على الأكثر الأرجح ، من آختيار ذات الدين ؟؟.

السبب هُو انعدام الدافع إليْها ، وتحوّله عن حقيقة الحياة إلى زخرفها وزينتها ، وتعلّق النفوس بالمظهر دون المخبر ، وأيْضاً لِنذْرتها هى .. !!.

فالذى يُقدم على الزواج ، يهمه أوّل ما يهمّه أن تتمتَّع خطيبتُه بحظٍّ وافرٍ من جمال الخِلْقة ، وهذا رأس الأمر عنده ، وغاية الغايات ، أضف إلى ذلك ـ إن اهتمَّ بعد الجمال بشيءٍ ـ أن تكون من مُستواه حسباً ونسباً ـ وهذا ما يؤكد عليه أهلُه وذووه ـ فإن لم تكن فى مستواه ، وآصطرع الجمال مع النَّسب ، كان الجمال عنده هو المقياس المفضّل ، ولوْ أدى الأمر ـ أحياناً ـ إلى نزاعٍ عائلى ، ويرضَخ بعد ذلك أهله (للواقع) .

ويأتى المال أو الغنى ـ فى بعض الأحيان ـ فى الدرجة الثالثة من الاهتمام ، وقد يكون الأمْر نسبيّاً متفاوتاً ، فهو ـ أى المال ـ عند البعض فى المقام الأوّل ،

obeikandl.com

والنسب عند البعض الآخر ...، وكذلك شأن الجمال .

إلا أن الحظ الأوفر للجمال ، على وجْه العموم ؛ وغاية ما نريد تحقيقه أن التديُّن والخُلُق لا يردانِ مُطْلقاً على ذهْن الخاطب لدى شروعه فى الزواج .

قد يعترض البعض فيقولون :

إن فترة الخطوبة ، من معاشرةٍ وحديثٍ وزيارات ....، كُل ذلك سبيل إلى اختبار الخُلُق ، وامتحان (النفس) ، واكتشاف مدى صلاحية الطرف الثانى للحياة الزوجيّة ، فكيْف يجوز لكم نَفِى الاهتمام بالْخُلُق كعنْصر أساسى فى اختيار الزوجة الصالحة ؟؟ .

والواقع الذى لا مراء فيه أن ما يُسمى بـ (فترة الخطوبة) ليست اختباراً على الحقيقة ، بل لهْواً ...، ومداعبة ...، كقُبلةٍ خاطفةٍ بعيدةٍ عن أعْين (الرقابة) ، أو ضمَّةٍ خانقة ...، أو لمسةٍ بارعة ...، فالأيدى المتشابكة فى الطريق إنما تتشابك شهوةً لا حناناً ، وفى كُلّ مكان ...

وقد سبق لى أن قُلْتُ : إن القُبلة قد تكُون خاطفة بعيدةً عن أعْيُن (الرقابة) ، والحقيقة أنها تحصل فى أيامنا بتغاضى الرقابة ، وبحضورها فى بعض الأحيان ــ لدى بعض الطبقات الاجتماعية ــ ، بل وبتشجيع منها ، وحينئذٍ لا تُسمّى (رقابة) ، بل تُسَمّى (....) !!.

بالله عليْكم ... أيْن الاختبار فى كُلّ هذا ؟ أم هُو اختبار لمدى طواعية الفتاة للاحتراق السريع أو البطىء ؟ كم من تفاوتٍ فى النظرة إلى الأشياء والحقائق تحدث بيْن الخطيبيْن ؟!!، إلا أنهما فى لهْوهما وعبثهما ، وشهوة الجنس الجامحة ، يتناسيان ما حدث ، حتى يتضخّم ويشتد ، ويكبر التفاوت ، ثم يُصْبح خلافاً مدمّراً للحياة الزوجيّة ، لا يقضى على الزوجيْن فقط ... بل على الأسرة كلها ، وهنا الطامة الكبرى .

إذاً ، لم تكن فترة الخطوبة اختباراً بمعناه الحق وضرورته الحياتية المنطقية ، بل كانت لهْواً ، ولعباً ، وتعامياً عن متطلباتها الحقة .

وليس تأكيد الإسلام على ذات الخُلُق والدين أن يتزوَّج المرء بمن لا تقع من نفسه موقع الرضى ، إنما معناه ، أن ينصب لنفسه أهدافاً عُلْيا للزواج هى :

obeikandl.com

(التناسل) ليعمر الكوْن ، و (الإحصان) ليحمى نفسه مغبّة الفساد ، و (السكن) الفطرى ، لتتوثق روابط العائلة ، ويشير إلى ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِن أَنفُسِكُم أَزْواجاً لِتسْكُنُوا إليها وجعل بينكم مودَّةً وَرَحْمة ﴾[1] .

فَنَشْدان الخُلق والدين بداهةً وأوّلاً ...

ولا بأس أن يطلب المرء من مخطوبته خلوّها من العيوب لتقع من نفسه موقع الرضى والقبول ، ولقد روى « البخارى » و « مسلم » وغيرهما : [أن « المغيرة ابن شعبة » خطب امرأةً فقال له النبى ﷺ : « انظُر إليها ...، فإنه أحرى أن يُؤدم بينكما »] ؛ أى تحصل الموافقة والملاءمة ، والانسجام المطلوب لكل حياةٍ زوجيّةٍ سعيدة .

مع العلم بأن الرسول ﷺ لم يحدِّد لـ « المغيرة بن شعبة » القدْر الذى يراهُ من مخطوبته ، بل أطلق له ذلك فى حدود ما يسيغه العُرف والبيئة .

ومن المعلوم أيضاً أن الشريعة لا تجيز للرجُل أن ينظر من الأجنبيّة إلا وجْهها وكفّيْها ، ولكن للخطبة ظروفاً استثنائية ، لذا قال ﷺ : « إذا خطَبَ أحَدُكم المرأة فَقَدر أن يَنظر منها بعض ما يدعوه إلى زواجها فلْيفعل » .

فللخاطب ـ فى عصرنا ـ أن يراها فى ملابسها التى تظهر فيها لأبيها وأخيها ومحارمها بلا حَرَج ، وأن يصحبها ـ بزيّها الشرعىّ ـ إلى ما اعتادت أن تذهب إليه من الزيارات والأماكن المباحة ، لينظر (عقْلها) و (ذوْقها) و (ملامح شخصيّتها) فإن ذلك داخلٌ فى مفهوم (البعضيّة) التى وردتْ فى الحديث الشريف .

ومما يدعو إلى الأسف أن من المسلمين من تزمَّت فرفض سنّة رسول الله ﷺ فلم يُبِحْ للخاطب حتى مُجرّد الرؤية ..، ومنهم من أباح بيْته وعِرْضه ، فخلا الخاطب بخطيبته ، وقد يخرج معها دون محرمٍ بلا قَيْدٍ ولا شرْط .

ومن البديهيّات التى تقرّها الشريعة الغرّاء (حُرّيّة) المرأة فى اختيار زوْجها .

---

(١) الروم : ٢١ .

obeikandl.com

قال رسول الله ﷺ: « **لا تُزَوَّج الأيِّم**[1] **حتى تُسْتَأْمر ، ولا البكْر حتى تُسْتأذن** » .

وَرَوَتْ « عائشة » عن النبى ﷺ قوله : « **البكْر تُسْتأذن** » قُلْتُ : إن البكْر تُستأذنُ وتَسْتحى !!؟ قال : « **إذْنُها صِماتُها** » .

فإذا زُوّجت الأيِّم دون أن تُسْتأمر فالعقْد باطل ، وإذا زُوّجت البكْر دون أن تُسْتَأذن فهى بالخيار ، إن شاءت أمْضَتِ العقْد ، وإن شاءَتْ أبْطلتْهُ .

جاءَتْ فتاةٌ إلى رسول الله ﷺ فقالت :

« إن أبى زوَّجنى ابن أخيه ليرفع بى خسيسته ...، فجعل النبىُّ ﷺ الأمْر لها ، فقالت : لقد أجَزْتُ ما صنع أبى ، ولكن أردْتُ أن أُعْلِم النساء أن ليس للآباء من الأمْر شئ » .

وهذا ، أسمى ما نالت المرأة من (الحرية) والكرامة والاعتراف بشخصيّتها و (حقِّها) فى قبول أوْ ردّ أى خاطب .

إن كل **حُريّةٍ تقابلها مسئولية** ...

إذاً ... فحريَّة اختيار الزوْج تقابلها مسئولية (**حُسْن الاختيار**) ، وتحمّل هذه **المسئولية** ، وما **يعقبها** ، وما **يترتَّب** عليها .

ودفعاً لكل التباس ووهم ، أحببت أن أعرض **لحرّيَّة** المرأة فى الاختيار حتى لا أُحمّل الرجل وحده **مسئولية** ضياع الأصلح والقاعدة ، **فكلاهما مسؤول عن توجيه تلك الحرية وِجْهة ـ معاصرةً ـ أسَفَّتْ بقيمة الاجتماع بينهما وربْطهما برباطٍ من الأدب والدين والخُلُق** .

فالفتاة حين يتقدم لخطبتها شاب ، وهى مالكة لحرية الاختيار طبيعيّاً ، تنشد أول ما تنشد ـ فى عصرنا ـ الثّراء ...، وكذا ولىُّ أمرها ، والأسئلة التى تدور عادةً :

كم يملك ؟ ما هو رأس ماله ؟ هل يملك سيارة ؟ هل يملك مسكناً ؟ هل هو مُسْرف ـ وفى العرف (كريم) ؟

---

(١) الأيم : من لا زوج لها بكراً أو ثيباً .

obeikandl.com

وبذا يخرج أمر الزواج و (**الاجتماع**) من **التقعيد** ، إلى **الوثنيّة** التى يُعبد فيها المال والجاه والمنصب ، وهو من سُوء فهم الناس لحقائق الأشياء وقيَم الحياة ، فليست البنْت (**سلعة**) ، ولا عقد الزواج (**صفقة**) تجارية ، إنما هو اقتران صفاتٍ بصفاتٍ ، ولقد قال رسول الله ﷺ : « **إذا أتاكم مَنْ تَرْضَوْن دينَهُ وخُلُقه فأنكحوه ، إلّا تفعَلُوا تكُنْ فتنة فى الأرض وفسادٌ كبير** » .

وهل من فتنةٍ أعظم وأخطر مما يُعانيه مُجْتمعُنا المعاصر !!!؟

وهل من فسادٍ أشَدّ وأفدحُ مما نَحْنُ عليه !!!؟.

ذلك هو نظر الإسلام إلى حقائق الأمور ، وهو نظر يجعل كفاءة المرء منوطة بكمال خلقِهِ ودينه ، لا بمالِهِ ... ومنصبه ....، ومَوْلده ، وفى ذلك يقول سبحانه :

﴿ **إنّ أكرمكُم عند الله أتقاكُم** ﴾[1] .

فكفاءة الدين والخُلُق هى المرجّح الأول لقبول الخاطب ، أما كفاءة الوسط الاجتماعى التى تتحدّد بالمال والمنْصب والنسب فلا يصح بحالٍ من الأحوال أن تقدّم على ميزة الدين والخُلُق ، فإنه يكون حينئذٍ تغليباً للاعتبارات الوثنيّة على اعتبارات المُثُل العُلْيا ، وهو من الفتنة والفساد الكبير الذى أشار إليه حديث رسول الله ﷺ .

ونُشْدان الثراء فى الخاطب لا تَخْفى الغاية منه ، فالفتاةُ فى هذا إنّما ترغب فيمن يضْمن لها الحُلىّ الفاخرة ، والأثواب الباهظة الثمن والتكاليف ، والأثاث ... والرياش ... والسيارة وإلى آخر ما هُنالك من (**فراغ**) و (**زينة**) ولا يُضيرها بعد ذلك خُلُق الزوْج ودينه ، لا يضيرها مطلقاً إن كان لا يراعى حرمة الدين طالما أنها (**ترتع وتلْهو**) ، لا يَضيرهُا إذا كان سكيراً ....، مقامراً ....، أو مُخَاتِلاً مخادعاً للحياة الزوْجية والأمانة الاجتماعية .

وقد تعرض (**الفارغة**) لرأس مال الخاطب كُلّه عند الزواج فلا بأس أن يؤمّن لها ما ترغب فيه ولو استهلكتْ ما ادَّخره فى نضاله مع الحياة ، ومكابدته

---

(١) الحجرات : ١٣ .

obeikandl.com

لها ، وتتربّع هى على عرْش خاوٍ **تعصف به مرَّةً واحدة ريح المنازعات** التى لا غنى عنها .

والإسلام الحنيف ، هو الذى أمر بيُسْر التكاليف وعدم المغالاة فى المهور ، لأنّه قائم فى أساسه على عدم الحرج ، قال تعالى : ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حَرَج** ﴾[1] ، ورُوى عن رسول الله ﷺ قوله : « **إنّ أعْظَمَ النكاح بركةً أيسره مؤونةً** » ، وقوله : « **خيْر الصداق أيْسره** » .

حقيقة لا مراء فيها : أن العلماء أجمعوا على أن المهْر لا حدَّ له ، ولكن البركة فى يُسْر المؤونة كما يصوّرها النبىُّ ﷺ بقوله : « **لو أن رجُلاً أعطى امرأة صداقاً ملء يديه طعاماً كانت حلالاً له** » .

و « عمر » ـ رضى الله عنه ـ يقول : « لا تغْلوا صدُق النساء فإنها لو كانتْ مكْرُمةً فى الدنيا أو تقْوى فى الآخرة لكان أوْلاكُم بها النبىُّ ﷺ » .

واليُسْر فى الصداق أمْر اعتبارىّ بتبايُن ما عند الأفراد من إمكانات ، فقد يُنفق أحد الناس مَبْلغاً ما بسهولةٍ كبيرة ، هو عند الآخرين شىء عسير لا يطيقونه ، وهنا يجْدر بنا أن نعرض لصورةٍ من الصُّوَر الجميلة (الواقعيّة) لا (الخياليّة) فى حياة المسلمين الأوائل الذين فقهوا المعانى والمُثل فآمنوا بها ونهجوها ، وهى من الصُّوَرِ التى تشرّف تاريخ الإسلام والإنسانية ، وتعلّم (تلامذة) العصْر قيَم الحياة الحقّة .

روى « أبو نعيم » فى (الحلية) قال :

[خطب « أبو طلحة » « أمَّ سُلَيْم » قبل أن يُسْلم ، فقالت : أما إنى فيك لراغبة ، وما مثْلك يُرَدّ ...، ولكنك رجُل كافر ، وأنا امرأة مسلمة لا يصحُّ لِى أن أتزوّجك .

فقال : ماذا دهاك يا رُمَيْصاء ؟!!.

قالت : وماذا دهانى !!؟.

قالت : أيْن أنت من الصفْراء والبيضاء ؟ (يعنى الذهب والفضة) .

---

(١) الحج : ٧٨ .

obeikandl.com

قالت : لا أريد صفْراء ولا بيْضاء ، فأنت امرؤ يعبد ما لا يَسْمع ... ولا يُبصر ولا يغنى عنك شيئاً !!! أما تستحى أن تعبُد خشبة من الأرض نَجرها لك حبشىّ بنى فلان !!؟ إن أسلمْت فذلك مهْرى ، لا أريد من الصداق غيره .

قال : ومَنْ لى بالإسلام يا رُميْصاء ؟.

قالت : لك بذلك رسُول الله ﷺ ...، فاذهبْ إليه .

فانطلق « أبو طلحة » يريد النبىَّ ﷺ وكان جالساً فى أصحابه ، فلما رآه قال : « **جاءكم « أبو طلحة » ، غُرَّةُ الإسلام بيْن عينيْه** » .

وأسلم « أبو طلحة » أمام النبى ﷺ وأخبره بما قالت الرميْصاء ، فزوّجَهُ إياها على ما شرطت] .

وبعـــد ....

فإذا ما كان الاختيار بيْن الطرفيْن يتمُّ أكثره وفق هذه المقاييس الوثنية ، بعيداً جداً عن روح العقيدة وأصول الشرع الحنيف ، فى الواقع المعاصر ، كان من المحتَّم والطبيعىّ أن يتأكّد الخلل فى أُسِّ البناءِ ، وتضطرب أصوله وقواعدُه على الدوام عند أقلِّ هزّةٍ ...

والواقع الذى لا مراء فيه ولا جدال أن الكيان الاجتماعى المعاصر لمعظم قطاعات العالم العربىّ والإسلامىّ لا يتّسم من حيث الصورة البارزة بأدنى مَعْلم من معالم المجتمع المسلم ، حتى ولا تَحْمِلُ فى مضامينها الخلفيّة بُذُور ونوايا الإصلاح ...، اللهُمَّ إلا عناصر فرديَّة أوْ جماعية (تحاول) أن تستعيد بالأمّةِ ما سَلَفَ من قيادة البشريّة والإنسانيَّة على هدى الله ، متّخذةً شعارها ودثارها ، قَوْل الله تعالى : ﴿ **إن هذا القرآن يهدى لِلتى هى أقْوَم** ﴾ .

ولا أعتقدنى بحاجة إلى التوسُّع فى إلقاء الأضواء على كُلِّ جُزئية من هيكليّة الكيان الاجتماعى ، إذ إن القاعدة الأساسيّة فى قيامته ، وهى (الأسْرة) ..، تَكْفى فى الإنباء عن هُزالِهِ !!!.

obeikandl.com

الْحَلُّ ... وَالمَرْأة

مع أهمِّية الدَّوْر ، والوظيفة الطبيعيّة التى خُصَّتْ بها المرْأة ، تعظُم التّبعةُ والمسئوليّة ، ويتعاظم الواجب .

وحيثُ إننا قد ركّزْنا على (**الدور المحورى**) لدى المرأة فى حدود الأسرة فإننا نُحمِّلُها قِسْطها من أسْباب المعاناة المعاصرة ، القسْط الأكبر ...

ونحن فى هذا لا نَتَجَنَّى أو نظلم ، أو نعْدل عن الصراط السوىِّ فى تَوْزيع نِسَب المسئولية ...، يكفى أنْ نذكر بأن (**الزوْجة**) بالإضافة إلى هذا المقام ، وبالإضافة إلى مقام (**الأمُومة**) ... تتبوَّأ تلقائياً وطبيعيّاً مقام (المربِّية) .

فهى تقوم كزوجةٍ بواجباتها الحياتيّة والمعيشيَّة نحو الزوْج ، وكذلك النفسيّة والرعائية وغيرها ، وبالمقابل فإنّ لها حقوقاً أدبيَّة ومادّية ، يؤديها هُوَ من غَيْر مَنٍّ ولا تَفضُّل ، وعليه ... تقومُ الشركة بيْن الطرفيْن على أُسُسٍ واضحة مُنْصفة .

وتقومُ كأُمّ بالحمْل والولادة والإرضاع ، وكُلّ تَدْبيرٍ تفترضُه وظيفةُ الأمومة .

ثم الأهمُّ من هذا كُلّه عمليَّةُ التربية ...، إذْ لا يكفى فى مَعْنى الأسرة : التزاوج والتَّفْريخ والإخصاب !. فلا بُدَّ من إدْراك الماهيَّة الأساسيَّة لكيْنُونة الأُسْرة فى البناء الاجتماعىّ الصّالح .

وهنا يتبدّى دوْر المربِّية .. (الأم والزوجة) ؛ وليس الحاضنة المستأجرة ؛ على النطاق الفردىّ فى البيْت سواءً كانت الأمّ عاملة أو غير عاملة ، أو على النطاق العام فى دور الحضانة كما نشاهد ونرى .

ونلاحظ أنّ طبقةً معيَّنةً من المجتمع اليوم هى التى تتّبع ذلك ، وأن هذه الطبقة بالإضافة إلى قُدْرتها المالية على تأمينه يتوفَّر أيضاً فى الأب أو الأم ، أو كليْهما ، مستوىً عالٍ من العلْم !!؟.

ونُحبُّ أن نتوسَّع قليلاً ...

والسَّبب أن هُناك كثيراً من الشُّبُهاتِ الأُنثويّة تَدُور حوْل وظائف : الزوجة والأم ، والمربِّية ، (ظنّاً) بأنَّهُنَّ مسُخَّرات فى هذا الصَّدد .

obeikandl.com

نتوسّع لإزالة الشُّبهات ، والوهْم الخادع ، ولنَنْتَهى من ثم إلى مقام المرأة فى القداسة والمحوريّة والأهميّة العظمى فى حياة الأسرة والمجتمع والأمم على مدى التاريخ الإنسانىّ الطويل .

« جاءَ « علىّ » ـ رضى الله عنه وكرَّم وجْهه ـ ومعه « فاطمة » ـ عليهما السلام ـ إلى رسول الله ﷺ يشتكيان إليه ما يلقيان من عناءِ العمل .. فجعل العمل بينهما قِسْمة : (فاطمة) لعمل البيت ، و (علىٌّ) لعمل الخارج .. » .

هذا الحكم فى توزيع المسئولية ، هو حكم الفطرة وقضاء الطبيعة ، طبيعة الأشياء والموجودات والمخلوقات ـ فقد تولّت الفطرة ، منذ الأزل ، تقسيم العمل بيْن الزوْج والزوجة تقسيماً لا ظُلم فيه ولا طغيان ، إذ إن المرأة من حيث التركيب العضوى هى المعدَّة لأن تحمل الجنين فى بطنها تسعة أشهر ...، ثم ترضعه ... وتقوم على العناية به ورعايته ، (هل فى ذلك شك ..؟!) وهل للمرأة من هذا فكاك وانطلاق ؟! كى تتقاسم مع الرجل أعْباء الحياة ؛ عِلْماً بأنها فى تلك المراحل تتعرض للضعْف والوهن والسّقم ، فلا تكون قادرة ـ بدنيّاً ـ إلّا على اليسير من العمل .

ثُم ...، هل أُعدَّ الرجل (الذكر) عُضْوياً لمثل هذا النَّوْع من وظيفة الحياة ؟! أم أنّه أُعفى مِنْه ؟ فلا يكون مُعرَّضاً للمرض والألم حيث أعمالُهُ فى وظيفته الحياتية تتطلّب الجهْد الكبير ، والبدَنَ القوىَّ المعافى !!!.

لقاءَ هذا التنوُّع الفطْرى والتقسيم الطبيعىّ لتَحمُّل أعباء الحياة بيْن الرجل والمرأة نستطيع القوْل بأن المرأة فى قيامها بواجباتها الحياتية ليستْ (خادماً) ذلولاً مسخَّراً لِخدْمة الرجُل ـ وهذه أُولى الشبُهات ـ، وكذلك الرجل فى قيامه بتكاليف المعاش والسعْى لها خارج البيْت ، ولكنهما ـ وهُما من نعْلم فى بقاء النوع الإنسانى البشرى ـ يتعاونان على أداء رسالة الحياة ، ويؤدى كل منهما (دَوره) الذى أهلتْه له فِطرةُ تكوينه وخلْقِه .

ولقد أَعْفتِ الشريعة المرأة من الإنفاق على نَفْسها وجعلتْ ذلك واجباً على الرَّجُل ، وهذا منتهى العدْل ..، إذ إنه لا يجوز مطلقاً فى منطق العدالة أن تحمل

obeikandl.com

المرأة وتضع وترعى ، دون أن يقوم الرجل من ناحيته بما يقابل ذلك من جلب القوت وتوفير النفقة .

وإذا لم يكن أحدهما مسخّراً للآخر ، كان من التجنّي ـ العصرى ـ أن يُقال بأن المرأة فى قيامها بأعْباء البيْت ليستْ إلا (رقيقاً) يمتلكه الرجُل بمالٍ (أى بالمهر والصداق) يدفعه ، ثم يَسْتحْوذ على هذا (الإنسان) فتكون مزرعةً لِنُطْفته، وقضاء شَهْوته (كأن المرأة ليستْ ذات شهوة !!؟) ومربّيةً لأولاده وخادماً ذلولاً لِبَيْته .

وهذا التَجنّى يُقابله تَجنٍّ آخر ، وهو أن الرجل فى سعْيه ـ بدنيّاً أو فكرياً ـ فى سبيل الرزْق والعيْش إنما هُو (مُسخّر) أيضاً !!، لا ينالُ مما يحصّله بكدّه إلّا جُزْءاً معيّناً ، يزيد أو ينقُص بحسب عدد أفراد الأسرة ، ليُنْفق على نفسه .

وتسميتنا لِهذه الشُّبهات (افتراءً وتجنّياً) سببه أن عاملى الحق والواجب غير باديْن ، فلم يظهر سوى عامل الأنانية والفردية .

فالرجل حين يدفع مالاً (مهْراً) للزوْجة ، لا يدفع (حقاً) ولكنّه يُعطيها (حقّاً) ، وهنا فرق كبير بيْن المعنييْن ، وهذه شبهة أوقعتْ ـ بعض المثقفين ، بل أكثرهم فَضْلاً عن العامة ـ فى مأزقٍ حَرِج ففهموا من (حق المرأة) : (ثمنها) ... وهذه مغالطة ، إذ إن الرجُل بدَفْعه المال لا يمتلك ، ولكنه يُعطى حقّاً .

ولماذا تسمى هذه الشركة (آستحْواذاً) مع أن لكُلٍ منهما حقوقه وواجباته ، ولماذا تُسمّى المرأة مزرعةً لنُطفتِهِ وقضاءً لِشَهْوتِهِ ، مع أنه لا خَيْريّة ولا تفاضل بيْن الماء والتربة والشمس فى حاجة الزرع إلى كل منها ، ولا غنى له عن أحدها ، فالْخِصْبُ إنما يتأتى بها جميعاً ، وكما أن شهْوة الرجل تنقضى بالجماع ، كذلك المرأة .

ولماذا تسمى المرأة (مربّيةً) لأولاده ...؟.

إنّ الأطفال أبْناؤها ... وفلذات كبدها ، وحبات قَلْبها ...، فى كُلّ لُقْمةٍ شاركوها وفى كل غذاءٍ قاسموها ، ومع كُلّ هجعةٍ رقدوا معها ...، فى كيانها عاشوا ، ومن فيْض حنانها آسْتقوا .

obeikandl.com

وبسبب هذا (التقارب) بين الأم والأبناء[1] كانت عاطفتها أشدّ ، ورعايتها أكبر ، وعنايتها أعظم ؛ ونستطيع القوْل : نِعْمتْ تَسميةُ (الزوجة ـ الأمّ) بـ (المربّية) .

وهنا بَيْتُ القصيد !! ومَكْمن الداء !!!.

فعبثاً نُحاوِل البناء الاجتماعى السليم ، وجسم الأُمة القويم ، إنْ نَحْنُ لم نَسْعَ إلى إيجاد الزوجة الصالحة . والأم الناصحة ، والمربّية الفاضلة !! ولسوْف تستمر عمليَّة التقهقُر والتدهْور ، ولن يتم لمجتمعنا النهوض من كبْوتِهِ إلا إذا أخذنا بناتنا ـ أمّهات المستقْبل ـ بفضائل التربية الإسلامية ، وقواعدها المتينة ومقاييسها الضابطة .

[اعْطونا أُمّاً مُسْلمة ، وخذوا مجتمعاً مسلماً] .

التربيةُ بيْن التَرَمُّتِ والأنفِلات !!

عجباً لِأَمْر المسلمين ، وأىُّ عجب !!!.

لقد اختارهم الله تعالى أُمّةً وَسَطا ﴿ **وكذلك جعلْناكُم أُمةً وسطًا** ﴾[2] الآية .

فَظَنَّ أكْثَرهُمُ أن (الوسطيَّة) المقصودة تهافت وضَعْف ، وليست دليل صِحةٍ وعافيةٍ فى الأُمَم ، أوْ فى الأفْراد ، وجمحتْ فى بَعْضهم قاعِدَةُ (قيادةِ البشريّة) عن مضمونها الصحيح ومفهومها السليم ، فظنّوها تَخَطياً لِلْوَسطيّة ، بالضرورة ..

إن (متوسِّط) قضيب الميزان ـ مَثَلاً ـ هو (مرتكز) العدالة ، فإن تأرجحت الكفّتان ، عُلُوّاً وهُبُوطاً ، فقد الاعْتدالُ معناه ، ولم يعُدْ للوسطيّة أدنى قيمة ... ولا للاتّزان أيْضاً .

فالعدْل الأزلىُّ الذى قامتْ به السماوات والأرض ومن فيهنّ يرتكزُ إلى التوسُّط من غير جموحٍ ولا اهْتزازٍ ولا تأرْجُح ..

---

(١) يُرجى العوْدة إلى كتابنا : (أولادنا فى ضوء التربية الإسلامية) نشر وتوزيع مكتبة القرآن ـ القاهرة .

(١) البقرة : ١٤٣ .

obeikandl.com

أفَلا ترى فى مِحْوريَّة الأرْض فى (وسَطها) ودورانها حَوْل نفسها وارتكازها على هذا المحْور ، آيةً من آيات الاعتدال والانْضباط !؟.

ويُقال ـ مثلاً ـ عن إنسانٍ فى إمكاناتِهِ وظروفه الماديّة ، دخْلاً وخَرْجاً ، إنَّه (متوسِّط) الحال ، فيرى بعض الناس فى ذلك (مسْكنةً) و (مكابدة) .. عِلْماً بأن (التوسُّط) هُنا وقايةٌ من سُوء طُغْيان الْغِنى بالنسبة للأكثريّة الساحقة من بنى آدم : ﴿ **كَلّا إنّ الإنسان ليطْغى أنْ رآهُ استغْنى** ﴾[1] ؛ وحِفْظاً من زلزلة الفقْر لعقيدة المرء وإيمانِهِ : [كاد الفقْر أن يكون كُفْراً ...] ؛ وهذه الوقاية والحفظ ـ على الأرْجح ـ تعدِّل السُّلوك ، وتَضْبطه عن الخلل .

هذا مدخلٌ لا بُدَّ منه ، لأن قاعدة (التوسُّط) فى المخلوقات الكونية والكائنات الحيّة ، التى تعنى الاستواء والعدْل تَتَغَلْغَل فى أعماق كُلّ موجود وتحْكُم حركته السليمة إلى غايتها ، فإن أغْفلت تحت ضغْط عاملٍ من عوامل الزّيْغ والهوى ، اختلَّتْ وتاهتْ عن هدفها وضلَّت عن غايتها .

والتربية التى تُعْتبر من المهمات الأساسية فى الحياة ، لأنّها (مادة) صياغةِ الإنسان وإعداده لمواجهة التطورات والظروف والأحداث ، واتخاذ الموقف المناسب منها ، هذه (التَّربية) تقتضى (التوسُّط) و (الاعتدال) كىْ يستقيم الميزان ..

وأشدّ ضروراتها أثراً وأعظمها خطراً ، فى البنات ، لأنهنّ (آلة) الإنتاج ومصنع الأفْراد ، وكُلّما كانت (الآلة) دقيقة مُحكمة أفْرزتْ صناعةً جيِّدةً منها الكفاءَة والمؤهّلات .

ولا نرى بأساً من هذا القياس ، ولو أنّ هناك الفوارق .
يقول رسولنا الأكرم ﷺ : « **إن هذا الدين متين فأوْغِلُوا فيه برفْق** »[2]

---

(١) العلق : ٦ - ٧ .

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى ، المجلد السابع . رواه أحمد بن حنبل .

obeikandl.com

ويقول : « **ولن يُشادَّ الدينَ إلا غلبه** » .

وقبل ذلك كُلّه وبعده قوْل العلىِّ الأعلى سُبْحانه : ﴿ **يٰأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء أن تُبْدَ لكم تَسُؤْكُم** ﴾[1] .

فمنطق الآية الكريمة والأحاديث الشريفة تهدْهِدُ فى الإنسان المؤمن غَلواء التشدُّد والتزمُّت ، وكل ما من شأنِهِ تقْييد الحركة أو شلها عن التفاعُل ، أوْ جموحها السلبى القاتل .

وبالمقابل تضبطُ إيجابيّته بحدود الالتزام المعقول فلا يفُرِّط ، ثم يقْعد ملوماً مَحْسوراً : ﴿ **ولا تَجْعل يدك مغلولةً إلى عُنُقِك ولا تبسطْها كُلَّ البسْط فتقْعُد ملوماً مَحْسُوراً** ﴾[2] .

والتربية السليمة الناجحة تَضَعُ الموازين بالقسْط ـ التى أمر الله تعالى بها وجعلها أُسَّ الوجود كُلِّه ـ لتستقيم الحركةُ ويعتدل الحكم وتتّزن المسيرة .

ونحن من خلال الاستقراء التاريخى للواقع الاجتماعى الإسلامى ، فى حقب بعيدة وقريبة ، نرى أن الفتاة المسلمة راوحتْ بين التطرُّف سلْباً وإيجاباً ، من الناحية التربوية بحكْم العوامل والظروف فأنتجت أجيالاً هَوتْ بالكيان العام للأمة من كُلّ النواحى ، كما (اعتدلتْ) أحياناً ، وِفْق القواعد الإسلامية فأفرزتْ استقراراً وانبعاثاً واستواءً فى المركز القيادى المطلوب ﴿ **لتكونوا شُهداء على النّاس** ﴾[1] .

إن الدَّوْر الذى لعبتْه (المرأة) كزوْجةٍ وأمّ ومرّبية فى الحياة الأندلسيَّة ، خصوصاً أولئك اللواتى كُنّ من غَيْر العرب أو المسلمات ، أو كُنْ مولدات ، فلم يسْتَقين فى تكوين عقيدتِهنَّ ولا أخلاقِهنَّ من النَبْع المحمدىّ الصافى أثّرن تأثيراً مدمِّراً وهائلاً فى المجتمع ، إن على مستوى الأفراد العاديين ، أو على مستوى

(١) المائدة : ١٠١ .

(٢) الإسراء : ٢٩ .

(٣) البقرة : ١٤٣ .

obeikandl.com

القيادة ، مما أدّى إلى الكارثة الرهيبة ، وضياع الفردوْس المفقود !!؛ وقِسْ على هذا مختلف العُصُور والأدْوار والأحوال .

ولعلّ القاعدة المنطقية فى القياس ، التى تقول بأن لكلّ فِعْل ردّةُ فِعْل تنطبق بتمامها على التّزمُّت فى مُقابل الانْفلات ..

إذ أتى على المجتمع الإسلامىّ حينٌ من الدَّهْر تَشَدَّد فيه الناسُ تَشدُّداً خطيراً خَرَج بهم عن أوّليات الحقُوق الإنسانيّةِ بالنسبة إلى المرأة ، وحرموها مِنْها ، توهُّماً مِنْهم وجَهْلاً ...، كالتعليم مَثَلاً ، والإكراه على الزواج من شخْصٍ معيَّن وغير ذلك ...!!.

ومن الغريب العجيب فى حياةِ المسلمين المعاصرة أن هذه المفاهيم الخاطئة المغلوطة لا تزال تَستجرُّ ذاتها ومنطقها الأعمى إلى اليوْم !!.

إنّ (عَصْر النهضة) لا يعْنى بالضرورة أبداً أن نرى الأكثرية الساحقة من فتياتنا المسلمات (أمهات المستقْبل) يجمحْن جموحاً رهيباً نحو الانفلات المطلق تحت شعار الحرّية ، وغيره من الشعارات التى تقرع آذاننا صباح مساء ، أو تَصْدم عيوننا وأبْصارنا ، كما لا يعنى بالضرورة أن يتقابل هذا الانفلات بالتزمُّت القاتل الذى يَحْجر على الفتاة عقلها وشعورها وكل كيانها ، ويحرمها من إنسانيتها ، وأيضاً تحْت شعار (المحافظة)!!! أيَّةُ حرّية !!؟ وأيَّةُ محافظة !!؟.

فَكِلا الشعاريْن قد ضيَّعَ المجتمع أو يوشك أن يقضى عليه !!.

فَهَلْ من قَفْزةٍ ووثبةٍ عاقلةٍ نحو الاعتدال !!؟ قفزة لا تكون فى المجهول .

obeikandl.com